مدخل..

لماذا هذه القمم والأفكار..؟!

obeikandl.com

رغم مشاركتى للشاعر الإسكندرى القديم كاليماخوس رأيه فى أن «الكتاب الكبير شرٌ كبير» حيث يتمثل بعض هذا الشر فى متطلبات مادته الغزيرة التى تضيف أعباء ثقيلة على مؤلفه. إلا أننى فى هذا الكتاب بالذات، قد لا أشارك هذا الشاعر القديم رأيه هذه المرة!

فإذا كانت فكرة هذا الكتاب تتطلب جهداً أكبر فى القراءة والمتابعة والاستيعاب، مما قد يمثل بعض الشر بالنسبة لكاتبه، فإن ذلك يهون.. إذا كانت هناك بارقة أمل فى أن يأتى من ورائه خير بالنسبة للقارئ.. وأى خير! بعد تأمل جوانب من الفكر الإسلامى من خلال هذا العدد من المفكرين، الذين أسهم كلٌ فى موقعه بنصيب فى بناء فكرنا الحديث بوجه عام.

أقول: إذا كنت قد جازفت فى تقديم هذا العدد من القمم وأفكارهم الإسلامية فى كتاب واحد، مع إدراكى أن الفكرة الواحدة لأى مفكرٍ منهم.. ربما تغطى صفحات كتاب بأكمله.. فيكفى شرف هذه المحاولة المتواضعة التى سوف يكون من نتائجها وضع هذه القمم وأفكارها الإسلامية فوق راحة اليد، حتى يعرف القارئ المسلم ـ إذا لم تكن سبقت له معرفة ـ هؤلاء القمم فى جانبٍ مهم ومحدد من جوانبهم.. وهو جانب الفكر الإسلامى.. وهنا يهون ما يلاقيه المرء من جهدٍ فى رصد هذه الفكرة الإسلامية.. من لحظة أن تكون.. من مكونات شخصية واحد من هذه القمم، ثم بلورتها، ثم تتبعها بعد ذلك فى منشئها ونموها وتطورها، وموقعها من أفكار عصرها بوجه خاص، ثم موقعها من الفكر الإسلامى بوجه عام.

ولمتابعة هذه الفكرة الإسلامية على هذا النحو.. اقتضى الأمر قراءة كل ما كتبه هذا المفكر أو ذاك فى الإسلام، إن لم يكن كل ما تركه من إنتاج فكرى بوجه عام، ثم قراءة كل ما كتبه الآخرون عنه، سواءٌ كانت هذه الكتابات مؤيدة أو معارضة، وتحديد دور كل واحدٍ وموقفه من القضايا الأساسية فى وطنه، ثم قراءة إنتاج الكثيرين ممن قد يظن أن لهم أية صلة بهذا المفكر أو ذاك؛ لتحديد موقعه فى الفكر الإسلامى بوجه عام.

ومن هنا يحق لى أن أقول مؤكداً: إننى لست فى هذا الكتاب مؤلفاً.. بكل ما تعنى كلمة التأليف من معانى وتحديدات ومناهج.. وإنما أنا قارئ يريد أن يعرف بعض جوانب الفكر الإسلامى، من خلال هذه القمم.. قارئ ينتقى من بعض هذه المختارات من كتاباتهم ما أرى ـ وأرجو أن أكون موفقًا ـ أنها نافعّة ومفيدة. ومن أجل هذا أحببت أن يشاركنى القارئ الكريم متعة فائدتها، وخير الانتفاع بها، حتى ولو كان قليل من كثير، مما تركه لنا فكر هذه القمم الإسلامية.

وحين شرعت أختار لم يند عن ذاكرتى الغرض ولا الموضوع، وتألق فى خاطرى ماكنت قد شرفت بقراءته لهذه القمم من فكر.. الحق أقول لكم: إنه رفيع ونبيل، شامخ وعظيم، جديد ومبتكر.. فكان أول ما التمع فى وجدانى.. عبقرية إنسانية. ستظل كذلك مهما كان الخلاف حولها.. عبقرية استطاعت أن تقهر كل ما فى الحياة من ضعفٍ وعجز، وأول ذلك.. ظلام هذه الحياة نفسها.. لتحتل بعد ذلك مكانة العمادة لأدبنا، والصدارة لفكرنا.. ذلك هو الدكتور طه حسين، وما قدمه من فكرٍ إسلامى.. يعدّ إضافةً للتفكير الإسلامى ككل.

وحين نغادر هذه القمة الإسلامية إلى غيرها، فإننا نلتفت إلى هذه القمة الخالدة ما خلد فكرنا العربى، فلا يمكن أن يكون هناك حديث عن عميد الأدب العربى أو له، دون ذكر لهذا الغائب عن حياتنا الحاضر فى فكرنا عباس محمود

العقاد.. أو عملاق الفكر العربى.. هذا المفكر الذى نجح أن يكوّن لنفسه منهجاً خاصًا، وكان صادقاً حين قال: «لم أتأثر بأحد؛ لأننى أردت أن أكون أنا نفسى..».

ولا يمكن أن يذكر إنتاج عميد الأدب العربى، أو عملاق الفكر العربى فى الإسلام، ولا نذكر أفذاذًا من جيلهم.. هؤلاء الذين أضافوا جديداً إلى التفكير الإسلامى، فلا يمكن مثلاً تجاهل أحمد أمين هذا الفيلسوف الزاهد فى كل شىء، إلا فى تحصيل المعرفه وإتاحتها لى ولك وللآخرين، فقدم لنا كتباً تتناول الحياة العقلية فى الإسلام.

ولا أيضاً أن تستمر حالة التجاهل بقصد أو بغير قصد.. تلك التى تفرضها حياتنا الثقافية.. حول أستاذ من أساتذة التاريخ الإسلامى بلا منازع.. ذلك الذى اختار أن يترك بصماته فى قلوب تلاميذه وعقولهم أفضل من أن يتركها على صفحات العديد من المجلدات، التى كان يمكن أن يقدمها للمكتبة العربية.. لا يمكن أن نتجاهل عبد الحميد العبادى الذى تناول الإسلام فى جانبه السياسى، فابتدع أسلوبًا، وخطّ منهجاً فى الدراسات التاريخية نقلتها من عصر التثاؤب والخمول، إلى عصر اليقظة والتفكير.

ولا الدكتور محمد حسين هيكل هذا الكاتب الذى عرفه تاريخنا الثقافى رائداً للقصة العربية الحديثة، وموجهاً للرأى العام، وزعيمًا لحزب سياسى. وفوق كل هذا وأهم كاتبًا لأجل حياة وأعظمها، وهى حياة محمد (ﷺ) وعدد من صحابته الكرام (رضوان الله عليهم).. الدكتور هيكل الذى ابتدع أسلوبًا فى كتابة التراجم والسير الإسلامية، هو موضع اهتمام الباحث والدارس فى العالم الإسلامى.

ولا توفيق الحكيم، هذا العبقرى الذى واصل العطاء بلا توقف أو وهن. والذى استطاع أن يرد على أباطيل وافتراءات إن لم تكن «بذاءات» كتّاب الغرب، وفى مقدمتهم «فولتير» بأسلوبٍ متحضرٍ يليق بأصحاب الحضارة، وأن يكون

أحدث ما يقدمه للمكتبة العربية بعد أن تجاوز الثمانين «التعادلية فى الإسلام».. منهجاً، ونظريةً، وأسلوباً فى التفكير.

كذلك لا يمكن لباحثٍ أو لدارسٍ أو حتى مهتمٍّ بدراسة الفكر الإسلامى فى الربع الثانى من القرن العشرين أن يمر دون التفات إن لم يكن توقف، أمام على عبد الرازق وفكرته الإسلامية.. تلك التى أقامت الدنيا وقتها ولم تقعدها سنوات، واستمرت إلى اليوم محوراً للجدل والمناقشة. هذه الفكرة التى تضمنها كتاب «الإسلام وأصول الحكم».. هذا الكتاب الذى لم يكتف بما أحدثه من أحداثٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ فى منتصف العشرينيات، بل انتقلت صفحاته إلى قاعات التدريس بالجامعات المختلفة ليكون ضمن موادها.

ولا يمكن تجاهل راصد الفكرة الإسلامية بمصر أبو العلماء الدكتور أحمد زكى.. هذا المزيج الفريد من العلم والأدب، الذى استطاع أن يقرّب بين العلم والأدب فى كتاباته، فأصبح عند الأدباء عالمهم، وعند العلماء أديبهم، وعند القارئ قمة إنسانية تجمع بين الاثنين. الدكتور أحمد زكى الذى أثبت أن هناك صلات رحم وقربى بين العلم والإيمان، حيث قدم لنا نظرية هى الإيمان العلمى، مؤكداً أن هناك جديداً يضاف إلى التفكير الإسلامى.

ولا يمكن أيضًا تجاهل شيخ جماعة الأمناء.. الأستاذ أمين الخولى.. فكتبه تقدمه كواحدٍ من المجددين فى التفكير الإسلامى.. كانت له رسالة.. لعلها تهدف إلى تجدد وإصلاح فكرنا الدينى.. تجديداً وإصلاحاً لا نستورده من أحد، وإنما ينبع من صميمنا، ويربط حاضرنا بماضينا، ويبقى على معالم الحضارة الإسلامية التى تعتمد على أصول تختلف كل الاختلاف عن غيرها من الحضارات.

ولا الدكتور إبراهيم بيومى مدكور، الذى تعرفه الأوساط العالمية رئيسًا لمجمع الخالدين، وتعرفه الأوساط العلمية شيخًا للفلاسفة المعاصرين، وتعرفه حياتنا الاجتماعية كاتبًا وسياسيًا ومصلحًا اجتماعيًا. كان جريئًا حيث استجوب الحكومة

عن الأسلحة الفاسدة التى استخدمت فى حرب فلسطين، أو حين نادى بتحديد الملكية الزراعية فى مصر.. ومتى كان كل ذلك؟ كان قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م. هنا يكشف القارئ الكريم بأن هذا الرجل قدم الإسلام تقديمًا منهجيًا دراسيًا مقننًا.

ونسارع الخطى.. فنحن على موعد مع اثنين أحدهما يكبر هؤلاء المفكرين بسنوات، والآخر يصغرهم بسنوات أيضاً، ولكنهما يتفقان ـ فى شرف ونبل ـ على فكرة واحدة هى الإيمان بالحضارة العربية الإسلامية قرآنًا وسنةً ولغةً وأدبًا، وبأن هذه الحضارة العربية الإسلامية التى تملك كتاب البيان تصلح أمًا للحضارات.. وأول الاثنين: هو الأديب الفحل مصطفى صادق الرافعى الذى خاطبه الإمام محمد عبده: «أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق الباطل، وأن يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوارل».. والذى وصف زعيم الأمة سعد زغلول كتابه الأشهر «إعجاز القرآن» قائلاً: «بيانٌ كأنه تنزيلٌ من التنزيل أو قبسٌ من نور الذكر الحكيم».. هذا الكتاب العملاق يقدم لنا الإسلام من زاوية إعجاز لغته، وكتابه الأعظم، ونبيه الأكرم (صلوات الله عليه وسلامه).

أمّا الثانى: هو العلامة محمود محمد شاكر ـ حارس الثقافة الإسلامية ليكون قمة يجمل بها فصل الختام. فنراه وقد بث منهجه الإسلامى الأصيل فى كل ما كتب، سواءٌ فى العقيدة أو الدين.. فى الفن أو الأدب.. فى الثقافة أو السياسة.. فى الفكر بوجه عام. وسوف نرى من خلال هذا المفكر، كم هو عظيم أن يسلك المسلم ذلك المنهاج الإسلامى فى الحياة.

وبعد أن تعرفنا على قمم هذا الكتاب.. يبقى السؤال لماذا كانت هذه الأفكار الإسلامية بالذات؟ ولماذا كان اختيار هذا العدد من المفكرين بالذات أيضاً؟ والأهم لماذا كان الاهتمام بإعادة كتابة التاريخ الإسلامى فى الربع الثانى من القرن العشرين؟

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نرجع إلى الموضوع من بدايته، فنرى أن الاهتمام بإعادة كتابة التاريخ الإسلامى بدأه الشيخ الإمام محمد عبده، وأستاذه جمال الدين الأفغانى، وكذا على أيدى تلاميذ الشيخ الإمام.. وضعف الاهتمام بذلك. ولولا عددٌ من الكتابات الهامة فى التاريخ الإسلامى لقلنا: إنه قد توقف فترة إلى أن بدأ واضحاً قويّا فى ثلاثينيات هذا القرن. فصدر فى عامٍ واحدٍ (مثلاً) هو عام ١٩٣٥م أكثر من عشرين كتاباً فى الإسلام.. فى مقدمتها: «الإسلام والحضارة» للأستاذ محمد كرد على، و«ضحى الإسلام» فى أجزائه الأخيرة للأستاذ أحمد أمين، وعلى «هامش السيرة» للدكتور طه حسين، و«حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، وترجمة كتاب «الإسلام والتجديد» للأستاذ عباس محمود العقاد، وغير هؤلاء ممن قدموا كتابات وصل تعدادها إلى العشرين كتابًا.

وصدور هذا العدد من الكتب التى تعالج الإسلام نظاماً وديناً فى أقل من عام.. يعدّ فى حد ذاته ظاهرةً اجتماعيةً تستحق البحث والدراسة، خاصةً وأنه لم يكن هناك قبلها اهتمام، اللهم إلاَّ هذا النزر القليل الذى خرج فى صورة بعض المؤلفات التى حفظت للتفكير الإسلامى استمراريته.

وما يزيد هذه الظاهرة استحقاقا للبحث والدراسة أن معظم مؤلفى هذه الكتب الحديثة لم يكونوا من رجال الدين المتفرغين للكتابة فى المسائل الدينية، والذين لا يستغرب منهم الكتابة فى هذا الميدان. ولكن الغريب أن من أقبل على طرق هذه الموضوعات الدينية لم يكونوا من المتخصصين، وفى مقدمتهم: الدكتور طه حسين، والدكتور محمد حسين هيكل، والأستاذ أحمد أمين، والأستاذ العقاد، والدكتور أحمد زكى، والأستاذ عبد الحميد العبادى.. إلى آخر هذه السلسلة التى يهتم الكتاب بمتابعة فكرتهم الإسلامية.

وهذا الفكر الإسلامى الذى برز فى ثلاثينيات هذا القرن نوع من الكتابات الإسلامية التى تجمعت لمفكرٍ واحد، وفق منهجٍ علمى فى البحث وذلك من حيث العرض والتحليل والاستقصاء، وفيها جلاءٌ لصورة الإسلام نظامًا وديناً

ورجالاً. وهى إلى جانب ذلك كله، تقديمٌ لحقائق الإسلام تلك التى تبطل افتراءات خصومه.

وانصراف هذه القمم غير المتخصصة تخصصًا دينيًا إلى هذا النوع من الكتابات، لابد وأن يكون له أكثر من دلالة.

والحق أنه كان هناك بالفعل أكثر من سببٍ وأكثر من عاملٍ، دفع هؤلاء المفكرين للكتابة فى الإسلام، ومن هذه العوامل والأسباب:

١ ـ ازدياد نشاط الحركة التبشيرية التى تناقلت الصحف يومئذٍ أخبارها فى ثلاثينيات هذا القرن، وكانت الجامعة الأمريكية بالقاهرة هى مصدر هذه الدعاية التبشيرية، وكان غريبًا حقًا هذا النشاط الذى أبداه المبشرون، والذى لم يسمع بمثله منذ عشرات السنين. فقد امتد من القاهرة إلى بور سعيد، وإلى غيرها من المدن، وقد أسهمت صحف ذلك الوقت فى وصف ذكر الإغراءات التى لجأ إليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق غير الإسلام. ولقد كان هؤلاء المفكرون من أشد الناس تحمسًا لمقاومة هذا التبشير! اقتناعًا منهم بأن هذه الحركة يقصد بها إضعاف ما فى النفوس من ثقةٍ بدين الدولة الرسمى، ولما تنطوى عليه من قصد سياسى هو إضعاف معنويات الشعب لإضعاف عقيدته. بالإضافة إلى أنهم رأوا فى هذه الحركة التبشيرية نفسها مقاومة لما يؤمنون به من (حرية الرأى)، فإغراء السذج والأطفال من المسلمين بهذه الوسائل المادية لحملهم على تغيير دينهم، أو حتى حملهم على تغيير رأيهم فى الحياة، هو محاربةٌ دنيئةٌ لهذه الحرية، كاستغلال المرابى حاجة مدينه ليقرضه بالربا الفاحش.. والتبشير فضلاً عن كل ذلك منافٍ لقواعد الأخلاق، مادام يتم فى الظلام ولا يصارح القائم به الناس؛ ليناقشوه فيما يقول ويدعو إليه، وليبينوا ما فيه من زيفٍ وفساد.

كان من أثر هذه الحركة التبشيرية، وموقف بعض هؤلاء القمم ومن يشايعهم، أن اندفعوا فى مقاومتها بالطريقة العلمية المثلى، وفكروا وتدبروا فلم يجدوا خيراً من إعادة كتابة التاريخ الإسلامى، بطريقةٍ يقتنع بها المسلم وغير المسلم.

ولاشك أن هؤلاء المفكرين قد فكروا فى مقاومة هذه الحركة بطريقة علمية واضحة، فحكموا العقل فى كثيرٍ من جوانب هذا الفكر. ولا أدل على ذلك مما يقرأ فى كتاب أحدهم، وهو الأستاذ عباس محمود العقاد الذى ننقل من كتابه «مايقال عن الإسلام» هذه العبارة، التى يقول فيها: «ولا يقل عن هؤلاء الكفرة فى عداوتهم للإسلام ـ يقصد الماديين ـ جماعة المؤمنين المحترفين سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرون بها الرزق، ويتوسلون بها جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء فى البلاد الأوربية والأمريكية. فهؤلاء أصحاب مصلحة فى تشويه الدين الإسلامى وتمثيل المسلمين على صورة التى تزكى عند القوم جذوة التعصب، وغلا لهم فى الجهالة والغفلة، فلا يسرهم أن تظهر الخيانة لهم لمن يستأجرونهم ويرسلونهم للتبشير، ولا يندر أن يكون المبشر ملحداً بالدين كله، ولكنه يعلم أنه يقطع موارد رزقه إذا كشف عن إلحاده، أو قال عن الإسلام قولة حق وإنصاف يمحو عداوة الأعداء، وتضعف غيرتهم وحمايتهم للحملات التبشيرية فى بلاد المسلمين فهو كاذب متعمد منتفع بالكذب لا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى إلى علمها برضاه».

ويفرق الأستاذ العقاد بين هؤلاء المؤمنين والمصدقين برسالتهم عند النظر إلى أقوال المبشرين. .يقول فى نفس المصدر: «فالمبشر المؤمن بدينه ربما انحرفت المخالفة الدينية بعطافته فنظر إلى الأشياء إلى غير وجهتها وأخطأ، غير متعمد أن يخطئ أو يصر على خطئه، أو ربما لاحت له فضيلة من فضائل الدين أو من فضائل أهله فلم ينكرها، ولم يحاول أن يطمسها ويخفيها. ولكنه يفسرها على سنة الأقدمين من المبشرين تفسيراً يوافق رأيه فى عقيدته وعقائد المخالفين له من المستحقين لغضب الله فى زعمه. .»

٢ ـ بهذا النمط من التفكير سلك بعض مفكرينا فى مقاومتهم للمبشرين ورجالهم دخول بعض الكتابات الأجنبية عن الإسلام إلى البلاد، ونعنى بهذه الكتابات تلك التى صاحبت حركة الاستشراق العالمية، والتى بدأت تراجع معتقداتها وتتصل بالعالم الخارجى. . اتصال كشف، وتقيس كل ما كانت تعرفه

على الواقع والحقيقة.. وكان التراث الإسلامى هدفاً من أهداف بحث المستشرقين. وهنا ظهرت بعض الكتابات التى تسىء إلى غرض تشويه الإسلام كهدف. فلابد وأن تقع فريسة أخطاء أخرى يكون من نتيجتها تشويه الإسلام أيضًا، مثل: عدم توافر الأمانة العلمية الواجبة، أو عدم الإحاطة بالإسلام دينًا ونظامًا وعقيدةً، أو عدم التمكن من اللغة العربية فضلاً عن بعض التعصب الدينى، وكثيراً من التعصب القومى.

وعلى الرغم من أن هذه الكتابات مضى عليها زمن طويل إلا أنها وقعت فى أيدى جيل العشرينيات والثلاثينيات. ذلك الذى أصبح يقرأ باللغات الأجنبية، ولا يجد فى الوقت نفسه من المؤلفات العربية ما يستطيع الوقوف به أمام هذه الكتابات المبنية فى كثير من جوانبها على الحجة والمنطق. حقيقةً كان هناك من الكتابات العربية ما يقدم نبى الاسلام (ﷺ)، ولكن بصورة تسىء إلى الحقيقة، بما تنسبه إليه من معجزات وخوارق لا يصدقها عقل، ولا هى تفيد فى تأكيد رسالته النبوية. فكان هذا الجيل من المثقفين أميل إلى تصديق كتب المستشرقين الذين يخاطبونهم بما يتفق مع عقليته الجديدة، واختلاف النتائج التى كان يصل إليها هؤلاء المستشرقون مابين مقرٍّ بعظمة الإسلام ونبى الإسلام ومنكرٍ لها.. مع زعم الفريقين بأن ما انتهى إليه بحثهما هو نتيجة للنظر العلمى المجرد.. هذا الاختلاف جعل الشك يتسرب فى صحة هذه النتائج من ناحية، ومن ناحية أخرى بدأ كتّاب وأدباء هذا الجيل يتعلمون منهجهم فى الكتابة، وفى نفس الوقت يتصدون للكتابة فى الإسلام بهذا المنهج. وبذلك قضوا على زعم هؤلاء المستشرقين، بأنهم هم وحدهم الذين يستخدمون المنهج العلمى فى كتابة التاريخ الإسلامى.

٣ ـ كتابات المتعصبين للغرب وطنيًا وجنسيًا التى يظهر التعصب فيها حين يكتبون عن المسلمين العرب. لأنهم إذا كتبوا عن المسلمين الهنود أو الفرس استطاعوا أن يقولوا إنهم من السلالة الآرية التى ينتمى إليها الأوربيون، واستطاعوا أن يزعموا ـ مثلاً ـ أن الإسلام قد أخذ التصوف عن الفرس، وأخذ الحكمة عن الهنود، والفلسفة عن اليونان، وأن المسلمين العرب كان يعولون فى

خدمة دينهم ـ بل فى خدمة لغتهم على المجتهدين من سلالة الآريين مما يزيد الغلو لدى هذه الفئة حتى تنكر دينها، لأنه تبشير رسولٍ (يهودى سامى) كما يقولون عن السيد المسيح (عليه السلام). وبعضهم ينشئ لنفسه مراسم وشعائر كالمراسم والشعائر التى يتبعها أصحاب العبادات ويتذرعون بما يدعونه من المزايا الجنسية والقومية لتسويغ سيادتهم على الغربيين أنفسهم، لأنهم لم يحرروا عقولهم من العبادات الشرقية، أو لأنهم خالطوا الشعوب من غير السلالة الآرية الخالصة، ولحقت بهم الهجنة فى الأنساب والأخلاق.

هذه الطائفة من ذوى النيات السيئة بين كتّاب الغرب يؤلفون عن المسلمين العرب على التخصيص، ومعظمهم ممن يدينون بالمذاهب الفاشية أو النازية فى السياسة والاجتماع.

٤ ـ كتابات طائفة يشوب كتاباتها الغرض كلما تحدثت عن البلاد الإسلامية بالضبط، كما يشوبها نفس الغرض كلما تحدثت عن بلدٍ غريب يتطلع القراء الغربيون إلى سماع أخباره، ويحبون أن توافق هذه الأخبار والأحاديث ما تخيلوه من أطواره وأعاجيبه، وهؤلاء الكتّاب يسوقون كتاباتهم إلى قراء ألف ليلة وليلة، ورباعيات عمر الخيام، ورحلات الرواد عبر القرون الوسطى، وهؤلاء يحبون أن يسمعوا خبراً غير الذى يألفونه، ويشبه ما تعودوه، وهواهم كله إلى الأحاديث الشرقية التى تعرض لهم شرقًا، فى الواقع كالشرق الذى سبق أن قرأوه فى أساطير الخيال. وقد رأينا بعض كتّاب الغرائب فى القرن العشرين يجول بين ربوع البادية العربية فيزعم أنه نزل فى ضيافة شيخٍ فى الستين، له فى مضارب الخيام ستين زوجة، وله من الأبناء والبنات ماليس يحصيه، ورأينا غيره يزعم أنه زار فى العواصم الإسلامية بيوتًا، لا تفتح نوافذها وأبوابها بالنهار ولا بالليل، وبين جدرانها خليطٌ من الزوجات والسرارى.. لا يهتدين فيه بغير دليلٍ من الخصيان. ولكن هؤلاء الغربيين المتخيلين بدأوا يثوبون شيئًا فشيئًا إلى الاعتدال فى رواية أخبارهم وأعاجيبهم هذه عن الإسلام ورجاله بعد شيوع الصور المتحركة وانتشار المناظر الشرقية على حقيقتها فيما تعرضه الشاشة البيضاء أو تعرضه الصحف

للسيارة. ولم تبق للغربيين المتخيلين غير زاوية واحدة يملؤنها بالأعجايب والمدهشات عن المسلمين الشرقيين وهى زوايا التاريخ والعصور التاريخية، التى يعمرونها بأبطال العصور الغابرة فيما يؤلفونه عن المسلمين من قصص البيوت والخدور.

٥ ـ خلو الميدان من الكتابات الإسلامية المقنعة، وذلك يرجع لسببين: أولهما: عدم وجود مفكرين أفذاذ، مثل: السيد جمال الدين الأفغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق، أو الشيخ الإمام محمد عبده المجدد الإسلامى، أو غيرهما ممن يستطيعون الصمود أمام هذه الهجمة الضارية والدفاع عن الإسلام بالحجة والدليل والمنطق، خاصةً وأن القائمين على أمر الكتابات المغرضة كانوا فى الأصل مفكرين يخدمون السياسة الغالبة على دولهم، فيصنعون لغة الدعاية تارةً، ولغة الدبلوماسية تارةً أخرى. وثانيهما: انصراف الأدباء والمفكرين فى ذلك الوقت إلى الكتابات السياسية والأدبية. فمن الناحية السياسية: نجد أن هذه الفترة ـ عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن ـ اجتاحتها أزمةٌ سياسيةٌ شاملةٌ أطاحت بالدستور، وفرضت على الناس دكتاتورية الأقليات السياسية، وعطلت الصحف، وضيق على الحريات. فضلاً عما كانت تعانيه البلاد آنئذٍ من أزمةٍ اقتصادية، فانصرف كتّاب هذه الفترة إلى السياسة.. وها هو الأستاذ العقاد يصل به الأمر إلى أن يقف فى مجلس النواب عام ١٩٢٨م؛ ليهدد رأس الملك بالسجن، فيسجن تسعة أشهر، مما يؤكد أن كتّاب هذه الفترة وأدباءها شغلتهم السياسة وأحداثها. أما من الناحية الأدبية: فقد انصرف أغلب المفكرين والأدباء إلى النقد والأدب وما يدور حولهما من معارك كثيرة.. فقد كانت هذه الفترة إحياءً للآداب الأوربية، وهو ما عبر عنه الدكتور طه حسين فى تقدمته للكتاب الأول من كتب الأستاذ أحمد أمين، وهو كتاب «فجر الإسلام» مبرراً انصراف أغلب الأدباء والكتّاب والمفكرين عن الكتابة فى الإسلام أو الأدب العربى القديم، قائلاً: «وقام بين الناس وأساتذة الأدب سور من اليأس عميق صفيق حال بينهم وبين أن يفهم بعضهم بعضا، فأما الناس فاستيأس أكثرهم من الأدب العربى، وأخذوا

يروضون أنفسهم على الاستغناء عنه والاكتفاء بالآداب الأجنبية. وأما أساتذة الأدب فاستيأسوا من الناس، واستيقنوا أن الحضارة الأجنبية قد أفسدت العقول والقلوب، وعكفوا على أنفسهم يتأملون هذا الأدب المشوه يعيدونه ويبدءونه، ثم يعيدونه ويبدأونه، ويزجنه زجًا فى نفوس الطلاب والتلاميذ، لا يحفلون بما يتركون فى نفوس هؤلاء الطلاب والتلاميذ من أثر، ولا يحفلون بما يستبقون لهذا الأدب العربى من حياة،ومع ذلك فليس الأدب العربى أقل حياة من الآداب الأجنبية مهما تكن، وليس الأدب العربى أقل صلاحاً للبقاء واستحقاقًا للعناية الخصبة والدرس المنتج من الآداب الأجنبية مهما تكن، وكل عيب الأدب العربى أنه مجهول.. لا يحسنه أصحابه، ولا يتعمقونه، وكل ما يحل بين الأدب العربى، وبين الحياة والخصب والنفع، أن مناهج البحث عنه والاستقصاء له سيئةٌ رديئةٌ لم تنظم بعد، ولم يتناولها الإصلاح فى مصر».

٦ ـ اللياذ بالعقيدة الدينية خوفاً من المذاهب التى تعدّ ـ فى ذلك الوقت ـ خطرة. وها هو الأستاذ العقاد يعبر عن ذلك فى مقالة بروز اليوسف عام ١٩٣٥م قائلاً: «إن السبب العالمى الأكبر لهذه الظاهرة ـ اللياذ بالعقيدة الدينية ـ هو فشل الفلسفة المادية فى إقناع العقول، وإرضاء النفوس وطمأنة الضمائر بعد اجتياحها العالم زهاء قرنٍ كامل، واعتزاز الناس بها فى غير طائل، وانتظارهم منها التعليلات والتفسيرات التى تعبوا فى البحث عنها والرجوع بها إلى الجاهدين المتفنين، وهم لا يفقهون بما يجيبون، ولا يبيحون للناس أن يفقهوا ما يجهلون.

وأما السبب الشرقى فهو اليقظة العربية واللياذ بالعقيدة التى تعيد ذكرى المجد القديم، وتحمى أصحابها من غارات أعدائها فى العصر الحديث، ففى الحجاز وفى اليمن والعراق وسوريا،وغيرها من البلدان الإسلامية كالهند والجزائر الأسيوية، حديثٌ عن الإسلام والعرب، ورغبةٌ دائمةٌ فى القراءة عن تاريخ المسلمين وزعماء الإسلام، ومن كان قد اطلع على طرفٍ من العلوم العصرية فى أنباء هذه الأقطار المترامية فهو يشتاق أن يرى الإسلام على هدى هذه العلوم، وأن يحكم الصلة بين زمانه وبين ما سلف من الأزمنة».

ويستمر الأستاذ العقاد فى مقاله هذا إلى أن يصل إلى قوله: «يحيط بهذه الأسباب جميعاً سببٌ شاملٌ ذلك هو الفزع من الشيوعية والاعتصام منها بالعقائد الروحية التى لا تسيغ المذاهب المادية..».

٧ ـ اجتذاب فريق من المسلمين المتعلمين إلى قراءة الكتب الغربية بعد انصرافهم عن الكتب العربية، حيث يلتمسون فيها حقيقة الإسلام اقتناعًا منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين بالعربية. بعد أن تبينوا أن الزندقة ـ فى نظر جماعة من العلماء المسلمين ـ تقابل حكم العقل ونظام المنطق، وأن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد، كما أن الإيمان قرين الجمود.. فاتجهوا إلى الفلسفة، وأهملوا التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها، حرصًا منهم على ألا تثور بينهم وبين دعاة الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لم يدرك بعض المتعلمين من المسلمين فى ذلك الوقت ضرورة الاتصال الروحى بين الإنسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع بالإنسان إلى أرقى مراتب الكمال، وتتضاعف به قوته المعنوية. واقتحم ميدان الكتابة فى الإسلام بعض هؤلاء القمم مدركين أن عملهم هذا يفسد ما يبغيه الاستعمار من تأييدٍ للطاعنين فى الإسلام تحت اسم حرية الرأى، وقصده فى ذلك القضاء على الروح المعنوية بإضعاف الثقة فى دين الأمة مما يضر بها، وأى ضرر يصيب الأمة بعد انصراف متعلميها إلى كتابات بعيدة عن الإسلام، والكتابة فيه بأقلام غير المسلمين؟

٨ ـ تحدى الحركة المحافظة، تلك التى عادت كل ما هو جديد فى الفكر فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، والسنوات الأولى من القرن العشرين. حتى كانت مصر تجتاز مرحلة المخاضِ العسير لولادة فكرٍ مصرىٍّ متميز.. وهنا تمثلت قلة من أبناء مصر الموجة الغربية. وبدأت تعمل على تطوير الحياة المصرية بدفعها إلى ذلك التحدى لملاقاة هذه الحركة المحافظة التى أسفرت عن وجهها، وهى تجتاز صحوة الموت عن جمود اتسم بالعنف فى مواجهة كتابات وأفكار الشيخ الإمام محمد عبده، فى دفاعه عن الإسلام، ودعوة قاسم أمين لتحرير

المرأة، وفى موقفها المتعصب من كتاب «فى الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين، وكتاب «الإسلام وأصول الحكم» للأستاذ على عبد الرازق.

٩ ـ الاستقلال عن تركيا وبريطانيا.. كان تدعيماً لأصحاب الآراء المعتدلة مثل: طه حسين والعقاد وهيكل وأحمد أمين.. وغيرهم ممن بدأوا يعملون على إيجاد فكر يحافظ على الأصيل من القديم الموروث، ويصل فى نفس الوقت إلى الجديد الأجنبى. وبمعنى آخر تناول تراثنا بأسلوبٍ عصرى جديد. ولم يكن هناك أفضل من الإسلام من ناحية الأصالة فى تناوله بأسلوبٍ عصرى جديد، خاصةً وأن الدين أول ما يقصد بالحماية حين يخشى الناس عاقبة هذه الأفكار الأوربية الوافدة التى ترى أن كل ما سبق من مسلماتٍ وعقائد وأفكارٍ يجب أن يعاد بحثه وتمحيصه على الطريقة العلمية، وتطبيق الطريقة العلمية على الدين على الرغم من جلالته وقداسته، وهو أمرٌ ـ كان يعدّ مؤامرةً خطيرة، إلا أنها كانت مؤامرةً ضروريةً وحتميةً برغم خطورتها. ومادامت هى ضرورية فالأفضل أن يقوم بهذه المغامرة من يعنيهم أمر هذا الدين، وهم مفكرونا وكتّابنا من المسلمين قبل أن يقوم بها غيرهم ممن لا يمثل الدين عندهم أهميةً فى قليلٍ أو كثير.

١٠ ـ رغبة المفكرين والأدباء فى إيجاد وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها.. وفكروا فى ذلك كثيرًا، فاتجهوا إلى الفرعونية يلتمسون فيها الامتداد إلى الحاضر.. فلما لم يجدوا ذلك ممكنًا.. اقتنعوا أن الاسلام هو الأفضل من ناحية الامتداد إلى الحاضر. مما يؤكد هذا الرأى ما ذكره الدكتور هيكل فى مقدمة كتاب «حياة محمد» حيث قال: «خيل إلىّ كما خيل إلى أصحابى أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض، ولكن ما الغرب غير صالح لأن ننقله فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافة الغرب».

ويمضى الدكتور هيكل فى سرد ما بين الحياتين المصرية والأوربية من فروق.

ثم يقول: «وانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلاً لوحى هذا العصر، ينشأ فيه نشأةً جديدة. . فإذا الزمن، وإذا الركود قد قطعا، ما بيننا وبين ذلك العهد من سببٍ قد لا يصلح بذرًا لنهضةٍ جديدة. فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر وفيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو. . ».

ولهذا كانت محاولات هيكل وأصحابه فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى حتى يتم ربط حاضر الأمة بماضيها.

١١ ـ يحيط بهذه الأسباب والعوامل: عامل شخصى يتصل بالوراثة وظروف النشأة فى أوساط اجتماعية تحترم الدين. فهؤلاء القمم يهتم بعضهم عند كتابة مذكراته الخاصة بأن يشيروا فى شىء من الاعتزاز بأنهم حفظوا القرآن فى طفولتهم. كما حدثنا الدكتور طه حسين فى الأيام، والدكتور هيكل فى مذكراته السياسية، والعقاد فى سيرته «أنا»، وأحمد أمين فى كتابه «حياتى»، وتوفيق الحكيم فى كتابه« زهرة العمر». والدكتور أحمد زكى فى كتاباته عن نفسه القليلة، وأمين الخولى فى بعض ما كتب، والدكتور إبراهيم مدكور وغيرهم. . وهذا يعنى أن للوراثة وظروف النشأة دخلاً كبيراً فى هذه الاهتمامات بعد ذلك. وهذا ما يجلوه ويعبر عنه صراحةً الأستاذ العقاد فى مقدمته لكتاب فاطمة الزهراء، حيث يقول:«ترد الإشارة إلى الوراثة فى مواضع شتى من هذه الصفحات التالية، ونعول عليها فى مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار ومنها أطوار الجماعات، أو أطوار الحركات التاريخية. وأرانى أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة فى كتابة هذه الصفحات، وكتابة كثيرٍ من الصفحات فى الموضوعات الإسلامية».

ويمضى الأستاذ العقاد فى مقدمته هذه موضحاً ومؤكداً فى نفس الوقت أن للوراثة وظروف النشأة أثراً فيما قدم بعد ذلك من الكتابة فى الإسلام.

١٢ ـ تصادف وجو هذا الجيل. . الذى يمثل بعض أفراده معالم فكرنا العربى

الحديث. فقد وجد فى وقت واحد الدكتور طه حسين والعقاد وأحمد أمين والدكتور هيكل والعبادى والحكيم والخولى وغيرهم، ممن تشبعوا بالحضارة الغربية سواءٌ فى مهدها أو بالاطلاع من خلال الكتب الوافدة.

ووجود هؤلاء القمم جنبًا إلى جنب فى عصر واحد ضمن للتجربة أكبر قدر من النجاح. ونعنى بالتجربة إعادة كتابة التاريخ الإسلامى وفقاً للمناهج العلمية الحديثة. فالخمسة يجمعهم ـ على الرغم مما قد يوجد بينهم من اختلافات فى وجهات النظر ـ أسلوب عمل واحد، وهو التجديد المبنى على الأسلوب العلمى. وهذا فى حد ذاته كان يعصمهم من هجمات كثيرة، ويقلل جوانب الخلاف.

لهذه الأسباب فكر هؤلاء القمم تفكيراً جديًا فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى على نحو يقبله المسلم المعاصر.

وكانت من بين الخطوات المبكرة فى هذا الصدد.. عندما اتفق الدكتور طه حسين مع الأستاذين أحمد أمين وعبد الحميد العبادى على كتابة التاريخ الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى حتى آخر عصر الدولة الأموية. بحيث يختص كل منهم بجانب من جوانب هذا التاريخ.. فاختص الدكتور طه حسين بجانب الحياة الأدبية فى الإسلام، واختص أحمد أمين بجانب الحياة العقلية فى الإسلام، واختص عبد الحميد العبادى بجانب الحياة السياسية فى الإسلام، كما سنرى بعد قليل.

وفى نفس الوقت تقريبًا بدأ تفكير الدكتور هيكل يتجه للكتابة فى الإسلام، وهو يشير إلى ذلك فى كتابه «حياة محمد» قائلاً: «كان من أثر هذه الحركة التبشيرية، وموقفى منها أن دفعنى للتفكير في مقاومتها بالطريقة المثلى التى توجب علىّ أن أبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثًا علميًا. وأن أعرضه على الناس عرضًا يشترك فى تقديره الجميع..

والحكيم الذى بدأت اهتماماته بهذا الجانب، حين كان بباريس واطلع على العديد من كتب الإسلام بأقلام غير المسلمين. وكانت هذه الكتب كلها هجوم وافتراء على الإسلام ونبيه الكريم. وهنا فكر فى الرد على هذه الكتابات، وفى

مقدمتها «محمد» لفولتير فكتب بحثاً كبيراً فى قالب مسرحى بمجلة الرسالة بمناسبة ذكرى الهجرة، سرعان ما تحول إلى كتاب «محمد الرسول البشر»، فيه ردٌ على ادعاءات فولتير وغيره من الكتّاب الغربيين.

وكذلك اهتم العقاد.. وها هو يحدثنا عن اللحظة التى بدأ فيها فى التفكير للإسلام. فيذكر أنه بعد وقعة حدثت أثناء مناقشة قامت بينه وبين عدد من الاصدقاء. حول ما كتبه «توماس كارليل» عن النبى فى كتابه «الأبطال»، وكيف أن أحدهم تطاول بالحديث على شخص النبى الكريم، فأساء إلى مشاعر الحاضرين، الأمر الذى جعلهم يجبرونه على الخروج من مجلسهم. أعقب ذلك حديث صوّره العقاد فى مقدمة كتاب «عبقرية محمد» قائلاً: «ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبى وهو كاتبٌ غربىٌ لا يفهمه كما نفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه. ثم سألنى بعض الإخوان ـ الحديث للعقاد ـ ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابًا عن محمد (ﷺ) على النمط الحديث الذى يستسيغه المسلم المعاصر»؟ وبالفعل برّ العقاد بوعده.. فكتب فى بداية الأربعينيات.

وهكذا يتأكد لنا أنه كانت هناك أسبابٌ ودوافعٌ لاتجاه هذه القمم.. الذين سنناقش أفكارهم على الصفحات التالية إلى الكتابة عن الإسلام.

obeikandl.com